المصيدة الجغرافية وصراعات المنطقة

جريدة "النهار اللبنانية"
د. حمدي هاشم
drhhashem@gmail.com

يحضرني المثل الصيني القديم عن ضرورة كيفية اصطياد السمكة ومناسبته لأهداف التنمية والبيئة في مختلف البلدان العربية، وكذلك مقولة (جمال حمدان): عندما تريد الدولة أن تثقف شعبها يجب عليها أن تعلمه الجغرافية والتي اعتمدتها الولايات المتحدة بحماسة وجعلت الجغرافية من المواد الأساسية التي واجهت بها القرن الواحد والعشرين.

أكد (هيرودوت) اعتماد سياسة الدولة على جغرافيتها عندما رفض قورش القائد الفارسي قيادة شعبه للسيطرة على المزيد من بلاد اليونان خوفاً من تأثير لين المناخ على نفوس رجاله! وأطلق مقولته الشهيرة (مصر هبة النيل) بعد زيارتها للتعرف على العادات والتقاليد خارج بلاده. وقد تناول (ابن خلدون) تأثير المناخ والبيئة، والجغرافية والبداوة والمدنية على أحوال السكان وأنشطتهم.
حيث تؤكد أدبيات الجغرافية السياسية هذه العلاقة الوثيقة بين نتائج الأبحاث في مجالات علوم الأرض وبين تطوير الاحتياجات العسكرية وأن لعلم الجغرافية تأثير خاص ومباشر في دعم اتخاذ القرار العسكري، سواء في وقت الحرب أو السلم، في تأمين الحيز الشامل للبلاد. ويحلو للبعض التشبيه بين مجهود الجغرافي في المجال العسكري ودور المهندس في المجال المدني.

ولا تزال نتائج المعلومات الجغرافية والطبوغرافية، وتقنيات علوم الأرض، ذات تأثيرات جوهرية في الحرب الحديثة، حيث تجسد خرائطها مسرح العمليات العسكرية، وتقوم دراسة المكان والعلاقات المتبادلة بين الظاهرة الجغرافية والمجتمع بدعم الرؤية الحربية، وتطوير الاستراتيجية العسكرية.

وقد استحدثت وزارة الدفاع الأمريكية (1973) ـ في سبيل تطوير قدرات الاستشعار عن بعد ـ النظام العالمي لتحديد المواقع GPS، ليوفر تغطية كاملة للأرض من الفضاء وبدقة عالية تناسب الاحتياجات العسكرية، وجعلت التحكم فيه للقوات الجوية العسكرية، مع إتاحة تطبيقاته الأرضية والبحرية والجوية للاستخدامات المدنية، وقد استفادت دولة كوريا الشمالية (2014) من ذلك النظام في تطوير قذائف صاروخية بالطائرات القتالية للتعامل مع المواقع الاستراتيجية، بل طورت صاروخاً باليستياً (2017) قادراً على حمل رؤوس نووية وأسقطته بنجاح في المحيط الهادي بين اليابان والولايات المتحدة.

ويتطلب التخطيط الجيوستراتيجي، العسكري والاقتصادي والإداري، الأخذ في الاعتبار كافة العناصر، والعوامل الجغرافية المسؤولة عن محاكاة (شخصية المكان الجغرافية) لتعظيم الاستفادة من المعطيات المكانية. ويتشكل المركب الجغرافي الجيوستراتيجي بوجه عام من: المسافة وكيفية امداداتها وتموينها، والأحوال المناخية والمائية وتطبيقاتها، والطبوغرافية ومسالكها الإيجابية، وشبكة الطرق والمواصلات ولوجستياتها، والسكان وتناسب القوة البشرية.

كان مسرح حرب الخليج الثانية (1990) وراء تطوير قدرات التحكم عن بعد من واقع العمليات العسكرية. وكانت الولايات المتحدة قد أحالت شبكة الانترنت للاستخدام المدني (1983)، مع ربطها بمثيلاتها ـ غير المعلنة ـ للاستخدام العسكري للاستفادة من معلوماتها التراكمية متناهية الحقول. وما يترتب على ذلك من تطوير التقنيات المؤثرة بأنظمة المراقبة الفضائية للتحكم بدقة بالغة في الحيز المكاني، وإطلاق القدرة الفائقة للسيطرة على كافة المواقع الأرضية التي تخدم مفاهيم الأمن القومي الأمريكي.

وفي الآونة الأخيرة، تعيش المنطقة العربية (حروب الجيل الرابع) المعتمدة على ثمار ذلك التطور التكنولوجي الأسي، واستخدام القوة الذكية بكافة أشكالها، والتي تتضمن مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها، وحرب المعلومات لإنتاج نوع من الدمار الذاتي لاستقطاب الدول في شكلها الجديد.

هذا وقد تؤدي هذه التغيرات الجيوستراتيجية، بشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر وليبيا، لإقامة (مشروع الشرق الأوسط الجديد) على أنقاض الوطن العربي الكبير، وتمكين الكيان الإسرائيلي من الإدارة الإقليمية للمنطقة، وذلك باستخدام وسائل محو القومية العربية، وأقلمة وتقزيم الدول المحيطة بإسرائيل لتظل بقدرات دفاعية لا تسمح بحماية مصالحها الخارجية الواسعة، ومن ثم تتحكم الولايات المتحدة وحلفاؤها بالسيطرة شبه الكاملة على خيرات وثروات هذه المنطقة من العالم.